إحسان

تزكية النفس.. وتصحيح المسار

التصوف الخليجي

الخصائص والسمات وخريطة الانتشار

الكاتب

مصطفى شفيق علام



فصول

التصوف الخليجي ... الخصائص والسمات وخريطة الانتشار

مصطفى شفيق علام(*)

قد يكون من غير المعتاد الحديث عن التصوف والصوفية في منطقة الخليج العربي، حيث ينظر إلى تلك المنطقة من قلب العالم الإسلامي بأنها معقل الفكر السلفي التقليدي بصبغته الوهابية، منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي وحتى قيام ما يعرف بالإمارة السعودية الثالثة عام 1932م، وذلك عندما تم توحيد مناطق نجد والحجاز وتهامة وعسير تحت حكم ملكي واحد لأول مرة مكونة المملكة العربية السعودية، ليصبح المذهب الحنبلي . وهو مذهب الإمام محمد بن عبد الوهاب . هو المذهب الرسمي للملكة الوليدة، وتصبح بذلك المملكة العربية السعودية وجاراتها من الدول الخليجية الأصغر هي حاملة لواء الفكر السلفي بصبغته الوهابية في العالم الإسلامي.

الوجه السلفي التقليدي المحافظ لدول الخليج العربية لا يعني بالضرورة نقاء هذه الصورة، فحينما يغوص الباحث المدقق في مكونات وأطر البنية الاجتماعية والثقافية للحالة الدينية في الخليج؛ يجد طيفًا واسعًا . وإن لم يكن كبيرًا من الناحية العددية . من الحضور الصوفي في مناطق عدة من الدول الخليجية، وما بين التصوف الفردي والتصوف الطرقي تتجذر المسألة الصوفية في النسيج الاجتماعي الخليجي، على الرغم من تأثره بثوبه السني السلفي المحافظ الذي يبدو للعيان.

التصوف السعودي ... والنزوع نحو الفردية:

وتعد منطقتا الحجاز غربًا والأحساء شرقًا الموطن التقليدي للوجود الصوفي في المملكة العربية السعودية، ويمكن القول إن التصوف بصبغته السعودية يختلف عن غيره من مدارس التصوف في الأقطار الإسلامية الأخرى نظرًا لطبيعة النظام الحاكم في المملكة وصبغته الدينية السلفية، ومن ثم فتتسم الصوفية السعودية بالنزعة الفردية، لاسيما بعد وفاة أحد أبرز شيوخها وهو محمد علوي المالكي عام 2004م[1]، وذلك بعد عقود من التصعيد الذي قادته المؤسسة الدينية الرسمية في المملكة ضد المالكي ممثلة في هيئة كبار العلماء إبان

(*) كاتب وباحث في العلوم السياسية

(1) ياسر باعامر، "صوفية السعودية وغياب القيادة"، الجزيرة . نت، 2010/6/20م.

رئاسة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله، والذي اتهم المالكي بنشر البدع والخرافات، والدعوة إلى الضلال والوثنية عبر قيادته لدعوة باطنية منحرفة عن صراط الشريعة المستقيم[1].

والمراقب للموقف السعودي من التصوف يجد نوعًا من التغاضي والتسامح عن صبغته الفردية، وتصدي وعدم قبول إذا ما أراد بعض من متصوفة المملكة أن ينحو بمسلكهم تجاه الصبغة الطرقية ذات الشكل التنظيمي الذي يقوم على مريدين وأتباع وشيوخ طريقة، ومن ثم فقد عمدت سلطات المملكة إلى إغلاق مسجدي عمر بن الخطاب وسلمان الفارسي رضي الله عنهما بالمدينة المنورة، وهما من المساجد السبعة في الجهة الغربية من جبل سلع التاريخي بالمدينة، بدعوى الترميم وفقًا للتصريحات الرسمية[2]، وإن كانت بعض التحليلات تشير إلى كون المسجدين قد شهدا محاولات بعض المتصوفة في المملكة لاتخاذهما منطلقًا لبعض المظاهر القبورية الشركية.

صوفية البحرين ... بين القادرية والنقشبندية:

وعلى العكس من الصبغة الفردية للتصوف السعودي، تتسم الصوفية البحرينية بالصبغة التنظيمية الطرقية، حيث ينضوي متصوفة البحرين تحت لواء مجموعتين كبيرتين رئيستين؛ الأولى: مجموعة الشيخ ناجي العربي الأستاذ الباحث في الجامعة البحرينية، والذي ينتمي إلى الطريقة القادرية نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني المولود في 470 هجريًّا، والثانية: مجموعة الشيخ راشد إبراهيم المريخي شيخ الطريقة النقشبندية، ورئيس جمعية الإمام مالك بن أنس، والذي يعد امتدادًا لسلفه الشيخ محمد بن علي الحجازي شيخ الطريقة النقشبندية في البحرين والمتوفى في يوليو من العام 1996م[3].

ويتركز الوجود الصوفي في البحرين في مناطق الرفاع والمحرق والحد، ويقدر عددهم بنحو بضعة آلاف وفقًا لتقديرات الشيخ المريخي النقشبندي، ونظرًا للطبيعة الديمجرافية لمملكة البحرين من حيث الوجود الشيعي

---

(1) انظر نص فتوى الشيخ ابن باز رحمه الله بحق علوي المالكي، مجموعة فتاوى هيئة كبار العلماء بالمملكة، فتوى رقم (86)، بتاريخ 1401/11/11هـ.

(2) صحيفة الوطن السعودية، 2011/6/25م.

(3) مصطفى زهران، "الصوفية في البحرين ... مزيج من الدين والسياسة"، صحيفة اليوم السابع، 2009/9/27م.

الكبير في التركيبة السكانية، يرى متصوفة البحرين أنفسهم وسطًا بين طرفين، بين السلفيين والإخوان وغيرهما من الحركات الإسلامية السنية من جهة، والتنظيمات الشيعية الأهلية والسياسية في المملكة الخليجية الصغيرة من جهة أخرى[1]، وإن كانت السلطات الحاكمة في البحرين لا تعتبرهم كذلك، بل إنها تضيق الخناق عليهم خشية استخدامهم من قبل التنظيمات الشيعية الفاعلة في المشهد السياسي البحريني، وقد منعت وزارة الأوقاف البحرينية الشيخ المريخي نفسه من الخطابة في المساجد منذ العام 1988م، كما منعته السلطات البحرينية كذلك من الترشح للمجلس النيابي عام 2006م[2].

هذا وترتبط الطرق الصوفية في البحرين بقريناتها في دول الخليج بشكل خاص والدول العربية الأخرى بشكل عام، حيث يتنقل المريدون من متصوفة البحرين بين هذه الدول لأخذ العلم على أيدي مشايخ الصوفية في السعودية والشام ومصر والمغرب العربي[3].

عُمان والإمارات ... الجذور المشتركة للتصوف:

وتشترك كل من سلطنة عمان ودولة الإمارات العربية في جذور التصوف في كل منهما، والتي تعود إلى ما يقارب الثلاثمائة سنة، متأثرة بالمتصوفة الحضارمة الذين وفدوا من منطقة تريم إلى ساحل عمان (الإمارات العربية حاليًا) يحملون الطريقة العلوية الحدادية، وفي أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ظهرت الطريقة القادرية في منطقة دبي على يد الصوفي المسمى بالسيد محمد عمر الأفغاني[4].

ويمكن القول إن الطريقة الحدادية لم تعد موجودة بشكل مؤسسي في ساحل عمان، حيث انتقل لواء التصوف في تلك المنطقة من ساحل الخليج العربي وخليج عمان إلى الشيخ عبد الرحيم بن الشيخ عبد الله المريد، من مواليد دبي عام 1902م، والذي يعد من كبار رواد التصوف في الخليج، ويقال إنه من نسل الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

---

(1) انظر حوار الشيخ المريخي النقشبندي، صحيفة الوسط البحرينية، 2008/10/7م.

(2) صادق الشيرازي، الإسلاميون السنة في البحرين، إسلام أون لاين، 2009/11/17م.

(3) انظر: "خلافات الصوفية والسلفية تؤخر قيام مرجعية موحدة للسنة بالبحرين"، العربية . نت، 2007/7/1م.

(4) لمزيد من التفاصيل حول التواجد الصوفي في ساحل عمان ودول الخليج العربي، انظر: مركز المسبار للدراسات والبحوث، التصوف في الخليج، أغسطس، 2011م.

وقد تلقى متصوفة الإمارات وعمان ضربة قاسية بوفاة الشيخ المريد عام 2007م، حيث استطاع المريد إحداث نقلة نوعية في البنية الاجتماعية الانعزالية التقليدية للمتصوفة نحو مزيد من الانفتاح والمشاركة المجتمعية، ومن ثم فلا غرو أن تتراجع شبكة العلاقات الاجتماعية الصوفية في الإمارات وتصاب بحالة من الركود بعد وفاة قطبها الأكبر عبد الرحيم المريد.

التصوف الكويتي ... فردي للرجال وطرقي للنساء:

وإذا كان التصوف الكويتي من الناحية التقليدية يطغى عليه الطابع الفردي على حساب الطابع الطرقي، فإن ذلك الأمر قد شهد على الجانب النسوي تغيرًا نوعيًّا نقل التصوف من الحضور الفردي إلى الحضور المؤسسي الطرقي، وذلك على يد من يطلق عليهن في الكويت "بنات البيادر"، نسبة إلى "جمعية بيادر السلام النسائية" التي أنشأتها الفلسطينية أمينة جبريل لتكون الفرع الكويتي للقبيسيات، وهي جماعة صوفية نسائية تنتشر بشكل خاص في كل من سوريا ولبنان والأردن وفلسطين والكويت، وتنسب إلى امرأة سورية غريبة الأطوار تدعى منيرة القبيسي، لها تصورات ضالة ومعتقدات بدعية تخالف نصوص الشريعة الإسلامية وصحيح الدين[1].

وقد تأسست "جمعية بيادر السلام النسائية" سنة 1981م، وتشرف حاليًا على عدد من المؤسسات التربوية الكويتية مثل مدرسة القطوف الخاصة، وحضانة السلام، وحضانة دار الفرح، ومركز دار النعيم لتحفيظ القرآن الكريم، ومركز إشراق للفتيات[2]، وقد جاء إنشاء هذه الجمعية نتيجة جهود كبيرة بذلها يوسف سيد هاشم الرفاعي وزير الدولة الأسبق لشئون مجلس الوزراء ورأس الصوفية الكويتية، بعدما فشل في دعوة الرجال على مستوى الساحة الكويتية، فلجأ بذكاء إلى الجنس النسائي مستغلًا عاطفتهن وقلة علمهن،

(1) انظر نص فتوى اللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء بالمملكة العربية السعودية بشأن القبيسيات، فتوى رقم (16011)، بتاريخ: 1414/5/18هـ.

(2) المركز الدولي للأبحاث والدراسات (مداد)، دليل الجمعيات النسائية، على هذا الرابط:
http://www.medadcenter.com/Charities/show.aspx?Id=1164

ليكن رأس الحربة للفكر الصوفي الكويتي لمجابهة الحركات السلفية الناشطة ذات الحضور السياسي الفاعل في الكويت.

ونظرًا لارتباط البيادر الكويتية بالقبيسيات السورية، فإنه يمكن اعتبار الصوفية في الكويت سورية المنبع، ويوجد للمتصوفة حضور فردي في بعض المؤسسات التعليمية والحكومية؛ مثل كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الكويت، ووزارة الأوقاف الكويتية، لكن رموز المتصوفة في تلك المؤسسات لا يعلنون عن أنفسهم وتوجهاتهم خشية استهدافهم من جانب التيار السلفي ذي الحضور القوي في الكويت، ومن ثم خشية الإنكار عليهم من عموم المجتمع الكويتي.

ومن أبرز هؤلاء الرموز المحسوبين على الفكر الصوفي في الكويت؛ الدكتور محمد عبد الغفار الشريف الأمين العام للأمانة العامة للأوقاف وعميد كلية الشريعة سابقًا، والدكتور يوسف الشراح الأستاذ بكلية الشريعة، والشيخ حمد سنان، والدكتور عبد الله المعتوق وزير الأوقاف السابق[1].

وأخيرًا؛ فإن المسكوت عنه في مسألة الوجود الصوفي في دول الخليج يعد أكثر من الظاهر والمعروف والمتداول في هذا الملف، ولعل بعض الدراسات والأبحاث القليلة التي تبحث في واقع التصوف الخليجي . على الجهد المبذول فيها نظرًا لندرة المراجع الرصينة في هذا الشأن . لم تكشف بعد إلا عن القمة الطافية والجزء الظاهر من جبل الجليد لهذا الموضوع الشائك ذي الأبعاد المتشابكة والمتعددة التي يختلط ويتشابك فيها الاجتماعي بالسياسي بالثقافي بالعقدي والديني، الأمر الذي يجدر معه بالباحثين في أقطار الدول العربية عامة والدول الخليجية خاصة، أن يأخذوا على عاتقهم دراسة واقع هذه الظاهرة وآثارها السياسية والمجتمعية حاضرًا ومستقبلًا.

---

(1) رجب الدمنهوري، "الصوفية في الكويت ... نبتة في بيئة سلفية"، إسلام أون لاين، 2009/4/14م.